من الواضح أن لفظ الإنسان أو الشخص هو لفظ جامع للصفات الذاتية و الموضوعية الفكرية و الواقعية القبلية و المكتسبة ،

فهذه الذات المستقلة المتميزة تمتلك هوية تميزها عن غيرها ٬ و تحظى بعقل يخولها إدراك وجودها و وسطها و التفاعل معه فداخل هذه الرقعة الجغرافية يتأسس معطى اجتماعي فضيلة إنسانية ٬ بل و مبدأ مطلق أصلي قد يكون مبنيا على ما هو خارجي ظاهر أو ما هو داخلي باطن ٬ على هذا السطح الدلالي تستوي القولة بجميع مكوناتها إذ تتاطر داخل مجزوءة الوضع البشري في مفهومها الشخصي وتتناول بالضبط المحور المتعلق بقيمة الشخص ٬ و ينضوي طرحها الإشكالي على كيفية الاحتفاظ بهذه القيمة و الدفاع عن مفهوم الشخص بكل ما تحمله الكلمة من معنى و يمكن ترجمة هذه الإشكالية على النحو التالي :

* أين تكمن قيمة الشخص و هل تعد نسبية أم مطلقة ؟
* ما مبررات احترام و كرامة هذا الكائن الواعي ؟
* و أين تتجلى طرق تأكيد الذات في إطار مناهضة التشييء ؟
* و إلى أي حد تختل قاعدته الراقية القيمية أثناء تعرضه للتهميش والابتذال ؟

بعد القراءة المتأنية للقولة و التدرج في فهم عناصرها ٬ يتبين أنها تتبنى أطروحة مفادها أن اثباث الذات و فرضها لا يتأتى إلا برفض المعاملة التشييئية و الامتناع عن الخضوع للصورة السلبية المستصغرة المنسوبة إليه ٬ و بذلك فهو يحاول جاهدا لإبراز مكانته سواء من خلال الأنشطة التي يمارسها في الحياة اليومية أو من خلال انجازات وطنية أو دولية يحققها ٬ و بالتالي فقيمته تتشكل في هذه الحالة من خلال ما يردده الآخرين من سمعة و ما يحكمون عليه بناء على ما أضفاه من جديد لمجتمعه : أي ما تميز به من منظومة مواقف ٬ في طريق مواز يقصد بالتشييء الاستهانة و الاستخفاف و وضع الشخص على زاوية الأشياء في مقارنته ٬ و بذلك تجميد معطاه الحيوي و إلغاء لدوره وسط المجتمع بل و إبعاده و فصل طابع الاحترام عنه ٬ فعند تعرض البشر لهذه الظاهرة التحطيمية يستتر ضميره الواعي و يفقد كامل مواصفاته كشخص ٬ فكلمة الشخص في اللسان العربي بمعنى شخص شخوصا بمعنى ارتفع و ظهر ٬ إذن فظهوره هو علامة على وجوده و اثباث هذا الوجود لا بد من ميزة عظيمة ٬ و هنا يتعلق الأمر بالقيمة أو المجد أو الهيبة .

في إطار هذا التحليل المسترسل للقولة ٬ نجد أن رائدها أراد أن يطلعنا على ما يواجهه الإنسان من تحديات في بعده العلائقي مع مثاله من الإنسان ٬ أي ذلك الشخص الآخر أو ما يسمى بالغير ٬ فعند اختلال مقاييس التصرف بينهما ينشب نوع من الخلاف ما يؤدي إلى سلب احدهما قيمة الآخر و اللجوء لتشييئه ٬ وهذا ما يدفع الشخص الآخر للبحث عن وسائل تمكنه من اثباث نفسه و استرجاع قيمته فعلى أي أساس تتشيد هذه القيمة ؟ وما هي الظروف المناسبة للحفاظ على استمراريتها ؟ و هل من حالات تستدعي استحضارها في مقاربتنا لهذا الوضع البشري ؟

إجابة عن السياق المبدئي لقيمة الشخص ٬ تظهر أطروحة الفيلسوف الألماني ايمانويل كانط ٬ فقد اثبت أن السر في سمو الإنسان و علوه لا يكمن فقط في امتلاكه لملكة الفهم ٬ و إنما في التعامل معه على اعتباره ذاتا لعقل أخلاقي عملي يستحق بموجبه الاحترام من لدن نفسه و من لدن المخلوقات التي تشاركه وجوده ٬ فلا يحق بأي صفة التعامل معه بوصفه شيئا أو وسيلة منوطة لتحقيق الغايات و الأغراض الخاصة ٬ فإنسانيته تضمن له كرامته ووعيه بها يشكل منبعا للفضائل الكونية ٬ و بذلك فقيمة الشخص تتأسس على ما هو أخلاقي محض . سيرا على هذا المنوال ٬ أضاف الفيلسوف الأمريكي جون راولز في مؤلفه نظرية العدالة كإنصاف بين السياسة و الميتافيزيقا أن قيمة الشخص تكتسي فضلا عن ذلك بعدا اجتماعيا و سياسيا ٬ فهذا الإنسان كمواطن لا يعد فقط آلة جامدة ٬ فعمله و مشاركته في الحياة الاجتماعية كفيل بتحديد قيمته ٬ إذ من خلال توفره على الكفاءتين العقلية و الأخلاقية يستطيع إصدار أحكام و سن قوانين مبنية على حس العدالة و الإنصاف ٬ و كذا اعتماد أفكار مرشدة لفعل الخير و التعاون الاجتماعي و بهذا المعنى يكتسي الشخص كامل العضوية داخل وسطه و يصبح يوما بعد يوم محطا للثقة بفعل التزامه الفعال.

اعتمادا لمقاربة أكثر شمولية تنصب النزعة الشخصانية للفيلسوف ايمانويل مونيي مبرزا أن الحياة الروحية الداخلية للإنسان بمثابة غرفة بلا باب يصعب النفاذ إليها ٬ فهو كائن يتميز بالإرادة و الحرية و التجاوز ٬ إذ باستطاعته في أي وقت تغيير مواقفه و سلوكاته في إطار بناء شخصيته و اكتساب مستمر لسماته ٬ فهذه الاستمرارية تحتم علينا الإعلاء من شانه و التخلي عن الواجهة التشييئية التي تلاحقه ٬ فهو واقع كلي و شمولي و ذات معنوية خاصة وهذا ما أكده مونيي في قوله " إن آلاف الصور المركبة لا يمكن أن تساوي رجلا يمشي و يفكر و يريد … ".

إذن بعد تحليلنا ومناقشتنا للعناصر التركيبية لهذه القولة ٬ يتضح جليا أن قيمة الشخص تتعاكس مع كل ما هو تشييئي بل و تتعدد أسسها و مرتكزاتها ٬ فإلى جانب هويته يجب أن يمتلك قيمة تؤكده انتماءه لمحيطه و تعطيه تفردا و خصوصية ؛ و بخصوص رأيي ٬ اعتبر أن قيمة الإنسان أصلية و تكريمه ضروري ليس فقط لنفعه و انخراطه ٬ يكفي فقط وجوده ٬ إذ نصطدم أحيانا بحالات إعاقة فكيف لهذا الشخص القدرة على التحرك و إسداء المعروف لمجتمعه ما لم نوفر له الوسائل لذلك ٬ و بالتالي فتدعيمه و دفعه لتجديد الثقة في نفسه يحفزه بالكاد على تحقيق أهدافه بما يشكل تقدمه و تقدم الإنسانية جمعاء .

من انجاز الباحث اشرف مطهر